

الأنواع السردية في الثقافة العربية

قراءة جديدة في الفكر النقدي العربي

د/ سعاد مسكين

جامعة تطوان. المغرب

ملخص:

تهدف هذه الورقة إلى إعادة النظر في الدراسات النقدية التي اهتمت بالسرد العربي باعتباره مقولة تندرج ضمن "الأدب الشعبي" بغاية تحديد المفاهيم المتعلقة بنظرية الأجناس الأدبية ومحاولة تتبع منطق التفكير لدى النقاد العرب في معالجتهم لهذه النظرية التي كانت محكومة في الغالب بالدفاع عن الفكر العربي والمنتج الأدبي على أنهما عرفا القصة والخبر منذ القدم متجاوزة بذلك خصوصية الطرح النظري والهدف منه بحيث وقعت جل هذه الأبحاث في ضبابية المفاهيم وعدم ضبطها ويرجع ذلك في الغالب إلى تنوع مرجعياتها النظرية التي لم تخرج عن كونها وصفية أو تاريخية. ويعد ما تقدم به الناقد سعيد يقطين محاولة معرفية ناضجة في ضبط مفاهيم نظرية الأجناس الأدبية عبر النظر إلى السرد العربي باعتباره الجنس الكلي العام الذي يمكن أن تندرج تحته مختلف الأنواع السردية والأنماط الخطابية المتنوعة.

Résumé :

Cet article revoie les études critiques qui ont longtemps catégorisé le récit arabe sous "la littérature populaire"

Afin d'identifier les concepts liés à la théorie du genre littéraire et en essayant de suivre la logique de pensée des critiques arabes dans son traitement de cette théorie qui a été destinée à défendre la pensée arabe et le produit littéraire tout en répondant à la question : est-ce que la littérature arabe a connu le « conte » et l'évènement ?

Dépassant comme ça le cadre privé de la thèse théorique et son but. Ce qui met ces recherches dans une vague d'ambiguïté et de non précision. Cela est dû à la diversité des références théorique qui s'est limité à être descriptive ou historique.

Ce que « Said YAKTINE » a présenté se considère comme étant un essai mur en définition exacte des concepts du genre littéraire en

analysant le récit arabe comme le genre entier et général qui pourrait contenir divers espèces narratives et types discursifs.

*** **

نروم من خلال هذه المقاربة إلى الوقوف عند مختلف الدراسات والأبحاث التي رصدت قضية الأجناس الأدبية في التراث العربي، دراسات بالرغم من تنوعها وتعددتها، إلا أنها هدفت إلى وضع تقسيمات وتفريعات للأجناس والأنواع، راعت فيها مقتضيات العصر، وتماشت مع متطلبات المجتمع (المتلقي) الذي أصبح في حاجة إلى وجود أنواع حكاية، تقترب من همومه وقضاياها اليومية والمعيشة.

وقد تجاوزت هذه الدراسات -التي نعتبرها دراسات متخصصة- ما جاء في البلاغة القديمة، وفي المصنفات العربية، إذ لم تكتف بالتقسيم الثنائي الكبير للكلام العربي (شعر، نثر)، ولا بالتقسيم الثلاثي الشائع (الخطب، الرسائل، الشعر)، بل حاولت التفصيل والتدقيق في النثر العربي في مختلف تجلياته وأشكاله التي عرفها، وذلك لتجيب عن سؤال جوهري، ظل مطروحا على السرد العربي القديم، وهو: هل عرف العرب القصة؟

لذلك جاءت بعض هذه الأبحاث لتجمع ما تفرق من النصوص والمواد الحكائية، وتعيد ندمجها وتصنيفها، بالرغم من تداخل بعضها ببعض. الشيء الذي شكل صعوبة في تمييزها وتحديدتها. مما يطرح أمامنا سؤالين يتطلبان البحث والاستقصاء، هما: كيف تم تحديد أنواع الحكاية في المدونة العربية؟ وما هي الأسس المعتمدة في ذلك؟

١. تصنيف الأدب الشعبي

نقصد بتصنيف الأدب الشعبي كل المقاربات والدراسات التي تناولت الأنواع السردية العربية، وأدخلتها ضمن مقولة كلية وعامة هي "الأدب الشعبي" في مقابل "الأدب الرسمي" أو "الأدب الخاصة". فوصف السرد القصصي بالشعبية إنما كان استجابة مباشرة للإحساس بالحاجة إلى ضرب من التمييز بين إطار

قصصي أدبي وآخر يتسم بالحرية والمرونة ومسايرة العقول والأمزجة والمواقف".¹

وما دام ظهور هذا الأدب جاء استجابة لروح العصر، ومسايرة للفئات الاجتماعية المستجدة، فقد كان من الضروري إظهار خصائصه وأصوله، ثم أشكاله الفنية التي عبر من خلالها عن طموح شعبه وآلامه وآماله.

ونميز داخل هذه المقاربات بين مقاربتين هامتين : إحداهما تدرس الأنواع السردية ضمن مقولة عامة، هي : "الأدب الشعبي"²، وأخرى تتناولها في إطار مقولة فردية، وهي : "الحكاية الشعبية"³

1. الأدب الشعبي : مقولة عامة

تجعل نبيلة إبراهيم من صفة "الشعبي" صفة تجمع بين مختلف الأشكال الأدبية التي تهدف إلى تفسير الحياة الروحية للإنسان، وتحصر هذه الأشكال في: "الأسطورة الكونية، وأساطير الأخيار والأشرار، والحكاية الخرافية، والحكاية الشعبية، واللغز، والمثل الشعبي، والنكتة، والأغنية الشعبية، كلها أنواع أدبية شعبية"⁴ فالأدب الشعبي، هو المقولة الكلية أو الجنس العام، الذي تندرج تحته هذه الأشكال التعبيرية.

وقد سعت الباحثة من خلال عملها هذا إلى وضع تصور نظري لبعض الأنواع الحكائية التي شهدتها الأدب الشعبي، محاولة رصد أصول كل نوع، وتحديد خصائصه الشكلية والموضوعاتية. ولعل هذا ما ستطرحه في مقدمة كتابها أثناء حديثها عن الأهداف المتوخاة من دراستها "ومن شأن هذه الدراسة أنها تتركز حول الشكل وحول الدافع الروحي الذي يدفع النوع الأدبي الشعبي في الظهور ثم حول وظيفة كل نوع في الحياة الروحية الشعبية"⁵. إن الاعتماد على المعيار الشكلي، والأصولي والوظيفي للنوع، جعل الباحثة تقسم الأدب الشعبي باعتباره جنسا كلياً وعاماً إلى الأشكال الآتية :

الأدب الشعبي

الأسطورة	أساطير الأخيار والأشرار	الحكاية الخرافية	حكاية الشعبية	المثل	اللغز	النكتة	الأغنية
- الكونية - التعليلية - الحضارية - الرمزية	- الأخيار - الأشرار		- قصة بطل واحد - تمجيد أسرة - تشير إلى حوادث البطل المؤلمة	- حكم مأثورة يعرف قائلها	- امتحان ألغاز - المخالطة	- السخرية من موقف - السخرية من ظاهرة اجتماعية معينة - السخرية من الخرمات	- أغنيات المناسبات - أغاني العمل - أغاني الموال

وإذا ما أردنا إعادة قراءة هذا التقسيم "النوعي" للأدب الشعبي لدى الباحثة، فإننا نجده يرتكز على ثلاثة جوانب أساسية، الجانب التأملي، الذي يقوم على معرفة الحقائق، وتفسير الظواهر، والتمييز فيها بين الخير والشر (الأسطورة/أساطير الأخيار والأشرار). والجانب المرجعي، الذي يتأسس على الفصل بين ما هو كائن وما هو ممكن، بين الواقعي والتخيلي (الحكاية الخرافية، والحكاية الشعبية). ثم الجانب اللفظي، الذي يراعي خصائص اللغة وتجلياتها (المثل، اللغز، النكتة، الأغنية).

لكن السؤال الذي نطرحه على الباحثة لماذا هذه الأنواع الثمانية وليس أخرى؟ وإذا ما بحثنا في كتابات ودراسات مماثلة، نجد أنواعا وتقسيمات مختلفة للأدب الشعبي، إذ في مقال لها حول "القص الشعبي: جمعه وتصنيفه"⁶، تحدد الأنواع الشعبية في: الحكاية الخرافية، وحكاية المعتقدات، والقصص التاريخي، والقصص الفني الرمزي أو القصص التمثيلي، وقصص الحيوان، والحكايات الهزلية، والقصص الديني، وحكايات التسلسل والتراكم والتصعيد. وهي بذلك، تركز دائما على التقسيم الثماني للأنواع، وإن كانت هذه المرة لا تدرجه ضمن

"الأدب" باعتباره مقولة عامة بل تدرجه ضمن مقولة أخص هي "القص". الشيء الذي جعلها تسقط النكتة واللغز والأغنية كما لو أنها ليست أنواعا قصصية، ولا تحتوي على مادة حكاية. لذلك تعترف الباحثة نبيلة بصعوبة التمييز بين الأنواع أو الفصل بينها، أو حتى الجسم في عددها لأن "عملية التصنيف لا تنتهي عند هذا الحد، إذ لا تلبث أن تثير مشكلات تحتاج إلى حل"⁷ فوجود وعي تنظيري وإشكالي لنظرية "الأنواع" لديها، هو الذي جعلها تفكر في أشكال التعبير في الأدب الشعبي، لأن الأشكال لا تستقر على حال، فهي دائمة التجدد والتطور، بتجدد الظروف التاريخية والفكرية للإنسان، ولعل هذا التطور وعدم الثبات، هما اللذان أسهما في التعدد والاختلاف، ثم أديا إلى التشابك وعدم القدرة على التمييز "ولا يعني هذا أن الأشكال القصصية المختلفة نقف متميزة بعضها عن البعض الآخر كل التمييز، بحيث يسهل على الجامع أن يحدد النوع تحديدا لا يساوره فيه شك، بل إن الأشكال القصصية قد تتداخل إلى حد الإرباك، وهنا تأتي الدراسات النظرية لتسعف الباحث في التمييز بينها على وجه الدقة"⁸.

وما دامت دراسات ومقاربات نبيلة إبراهيم تندرج ضمن الدراسات التنظيرية، فقد بدأنا نتلمس ذلك، من خلال ذكرها لبعض المصطلحات، التي لم نعهدها، لا في كتب البلاغة القديمة، ولا في المصنفات العربية، إنها مصطلحات تصويرية تسهم في التصنيف والتقسيم، وهي : الجنس، والنوع، والقسم، والنموذج. فالجنس هو المقولة العامة والشاملة لكل الأنواع الشعبية. والنوع، هو كل ما يندرج تحت الجنس، ويتميز بالتعدد والاختلاف، ثم القسم، وهو ما ينحدر عن النوع، وقد يركز في تحديده على الموضوعات، أو موقف الشخصيات، أو الوظائف. وأخيرا، النموذج، وهي النصوص والمواد الحكائية، التي تشكل مثلثة لبعض الأنواع الشعبية. من ثمة، تصنف الباحثة الأشكال الأدبية من العام (الجنس) إلى الخاص (النص)، وتندرج مما هو أكثر تجريدية إلى ما هو تجريبي.

2. الحكاية الشعبية : مقولة فردية

يأتي الحديث عن "الحكاية الشعبية" لدى عبد الحميد يونس، للدفاع عن القص العربي، والتأكيد على وجوده وملازمته للمجتمعات العربية؛ إذ "عرفت الأمة العربية القصص منذ حققت وجودها بالكلمة والخبر"⁹ ويقدم وصفا لها بكونها شكلا فضفاضاً، "يستوعب ذلك الحشد الهائل من السرد القصصي الذي تراكم على الأجيال والذي حقق بوساطته الإنسان كثيراً من مواقفه ورسب الجانب الكبير من معارفه وليس وقفاً على جماعة دون أخرى، ولا يغلب على عصر دون آخر"¹⁰. لذلك، تتشكل خصائص هذا المفهوم، انطلاقاً من معالم تتحدد، على النحو الآتي: الشمولية، والتراكم، والعمومية، والتاريخية.

ويعود ظهور الحكاية الشعبية، إلى الأسطورة التي تعد بمثابة المنبع أو الأصل الذي تتفرع عنه، إذ تتحول محاورها الرئيسية، وتعاد صياغتها في شكل حكاية شعبية.

وبعد تحديد المفهوم، وإظهار أصوله، ينتقل الباحث، ليعطينا أنواعاً للحكاية الشعبية، وهي ثمانية: الأسطورة، وحكاية الحيوان، وحكاية الجان، السيرة الشعبية، وحكاية الشطار، والحكاية المرحّة، والحكاية الاجتماعية، وحكاية الألفاظ.

لقد أدرج عبد الحميد يونس، أنواعه الحكائيّة ضمن "الحكاية الشعبية" باعتبارها جنساً كلياً وعاماً، في حين، نجد نبيلة إبراهيم تحددتها كنوع مندرج تحت مقولة "الأدب الشعبي" فكيف يمكن للجنس أن يتحول إلى نوع؟ والعكس صحيح.

وظف الباحث الحكاية الشعبية بمعناها الاصطلاحي والمفهومي، يتجلى ذلك، في وقوفه المتكرر عند مصطلح الحكاية: "وتطلعنا كلمة حكاية... وهكذا برز مصطلح الحكاية... الحكاية الشعبية بهذا المفهوم... هكذا يكون اصطلاح الحكاية..." ثم عند تعريفه لها، يضيف صفة الشعبية عليها، ليجعلها مفهومًا



عاما "يستوعب أنماطا وأنواعا متفاوتة، وتستهدف وظائف متنوعة، وهي عبارة يغلب عليها الشمول وتعوزها باعتراف العلماء المتخصصين في المأثورات الشعبية، الدقة والتحديد"¹¹.

إن صعوبة التحديد والدقة، تسهمان في عدم وضوح المفهوم، والخلط بينه وبين مفاهيم أخرى عامة: الأدب الشعبي، وفن القص، وفن الحكيم... الخ. وإذا افترضنا أن الحكاية الشعبية مقولة كلية وعامة، تجمع جل الأنواع فبماذا نبرر عدم ذكره لأنواع أخرى؟ وما الفرق بين "الحكاية الشعبية"، والقصص الشعبي "مادامت هاته الأخيرة مصطلحا عاما يشمل فنون السرد كلها؟

لقد أنتج تصنيف الباحث عبد الحميد للحكاية الشعبية أنواعا جديدة ومختلفة عن الأنواع التي صنفتها نبيلة إبراهيم، فإذا اشتركا في بعض منها: الأسطورة، وحكاية الحيوان، واللغز. فإنهما قد اختلفا في أخرى. إذ ركز عبد الحميد على أصناف الحكاية، وحدد معالم حكاية الجان، والسيرة الشعبية، وحكاية الشطار، والحكاية المرحية، والحكاية الاجتماعية. أنواع تختلف وتأتلف فيما بينها، لأن البعض منها ينبني على الحدث، وأخرى تنبني على الشخصية:

الحدث: السيرة، حكاية الشطار، الحكاية المرحية، الألغاز

الشخصية: الأسطورة، حكاية الحيوان، حكاية الجان، الحكاية

الاجتماعية.

كما ميز الباحث بينها من خلال رصد أصول كل نوع، ودراسة خصائصه الذاتية، وعلاقته بأنواع أخرى، ثم إظهار وظائفه وأهدافه.

II. تصنيف القصص العربي

عمدت الدراسات والمقاربات التراثية إلى تصنيف القصص العربي والبحث في تجلياته المختلفة للرد على تلك الادعاءات التي ترى أن العرب لم يعرفوا الخيال ولا القصة، كما أنها حاولت جمعه وتصنيفه باعتباره نوعا مستقلا، يجب دراسته كباقي الأنواع الشعرية أو النثرية، وذلك حتى لا يظل مهمشا، أو مجرد أخبار وقصص تتناثر هنا وهناك، بين كتب التاريخ والأسفار واللغة.

فجاءت بعض هذه الدراسات، تحمل طابعا نقديا؛ لأنها حاولت تتبع خصائص النوع القصصي، وتحديد وظائفه، مع تقديم النصوص الممثلة له. وأخرى تتخذ من البعد التاريخي دعامة لتحديد فن القص العربي وأنواعه.

1) الدراسة الوصفية

لقد استطاع موسى سليمان، في كتابه "الأدب القصصي عند العرب"¹²، تصنيف أنواع القصص العربي، وحددها في قسمين هما: القصص الموضوع، وهو من وضع العرب. والقصص الدخيل، وهو اقتباس للعرب عن غيرهم، ويشمل القصص الفارسي والهندي واليوناني.

وفصل الحديث عن القصص الموضوع، ويحدد أنواعه في:

أ- القصص الإخباري: ويعني بها. "تلك الحكايات القصيرة، والأسمار الكثيرة، والنوادر الطريفة، والأخبار المشتتة هنا وهناك، لا يجمعها كتاب واحد من كتب الأصول، لأنها لم تدون في مكان واحد معين، ولم يكتبها كاتب واحد."¹³ نستشف من خلال هذا التعريف أن القصص الإخباري يضم تجليات قصصية متنوعة، منها الحكايات، والأسمار، والنوادر، والأخبار، تحمل مواصفات مختلفة: القصر، والكثرة، والظرافة، والتشتت، مما يجعلها سريعة الانتشار والحفظ، ويسهم في أن تظل مجهولة المكان والنسب. يجزئ الباحث أنواع القصص الإخباري بحسب الأغراض والأهداف، إلى ستة أنواع، وهي الحكاية الفكاهية، والحكايات الاجتماعية، والحكاية الأسطورية أو الخرافية، والحكايات الفخرية، والحكايات التعليمية، والحكايات الغنائية ثم الحكايات الحبية.

ب- القصص البطولي: وهي "حكايات تدور مواضيعها المتعددة حول بطل أو أبطال من أبطال العرب المعروفين، كما تصف أيام العرب ووقائعهم المشهورة، محددة الشخصيات الكثيرة التي اشتهرت في هذه الحروب"¹⁴

ولا يكتفي الباحث بتقديم تعريف لها، بل أكثر من ذلك، يضع خصائصها تتميز بهزالة اللغة والأسلوب، الركاقة والإسفاف، ثم الخلط التاريخي في سرد الحوادث والوقائع، كما يقدم نماذج نصية تمثل لهذا النوع القصصي.

ت- القصص الديني: ويقصد بها "كل حكاية كان موضوعها الأساسي الدين والرسول والأنبياء"¹⁵. وهذا القصص قديم في الإسلام، ففي القرآن الكريم حكايات عن الأمم الغابرة والشعوب القديمة، والغاية منها هو تحقيق العبرة الأخلاقية والعظة الدينية.

ث- القصص اللغوي: "وهي الحكايات التي ألفها أصحابها بأسلوب قصصي وهم يرمون فيها إلى غاية لغوية أكثر مما يهدفون إلى كتابة القصة"¹⁶. وتُمثل هنا بفن المقامات، التي يُحدد لها أصنافا، ويحصرها في: المقامة الأدبية واللغوية، والمقامة الفقهية، والمقامة الطبية، والمقامة المجونية، والمقامة الخيالية، ثم المقامة الأخلاقية.

ج- القصص الفلسفي: "الدافع إليه لم يكن الفن القصصي بالذات، بل فكرة فلسفية حضرت في خاطر أحد المفكرين فلم يجد أسهل وأجمل من التعبير عنها بطريقة القصة"¹⁷ وتمثل كلا من رسالة الغفران، ورسالة التوابع والزوابع، وقصة حي بن يقظان، نماذج لهذا النوع.

إن ما يمكن تلمسه من خلال هذا التصنيف، هو تركيز موسى سليمان فيه، على الجانبين المضموني والمقصدي في حصر هذه الأنواع وضبطها. لذلك فقد اهتم بالمادة الحكائية للقص العربي الشيء الذي دفع به إلى إدراج مساهمته ضمن "الأدب القصصي" وليس "الأدب الشعبي"؛ لأن "شعبية" الأدب تجعله عاما وفضفاضاً، في حين، تبدو "قصصيته" أكثر خصوصية وأضيق مجالا.

ويحدد الباحث في نفس الصدد، تصنيفات لبعض الأنواع القصصية، مثل القصص الإخباري والقصص اللغوي. بينما يكتفي عند تحديده لأخرى، بذكر

نماذج نصية يمثل بها، نماذج تتماشى والتطورات التاريخية التي تسهم في ظهور النوع وبروزه.

(2) الدراسة التاريخية

تضع عزة الغنام تصنيفا للفن القصصي، وتعتمد فيه على نوع مركزي للتحقيب، وهو فن المقامة، مما جعلها تقسم دراستها إلى باين : الباب الأول تظهر فيه ملامح القصة العربية قبل ظهور المقامات، وتدرج ضمنه خمسة أنواع كبرى، هي: الأخبار، وحكايات الأمثال، والنادرة، والمقامات الأولى، والقصص المنقول عن الأمم الأخرى.

وركزت في الأخبار على تأصيل فن الخبر، وذكر كل المصنفات والمختارات الأدبية التي أسهمت فيه، مما جعل هذا الفصل يغلب عليه الطابع البيبليوآغرافي، وحصرت أنواع القصص الإخباري. في خمسة أصناف : القصص البطولي، والقصص الوجداني، وقصص حول معتقدات العرب، وقصص الحيوان، وقصص العشاق.

وعمدت أثناء حديثها عن الأمثال، إلى ذكر بعض التعاريف الواردة في المصنفات العربية، مع عرض لبعض الأعلام الذين أسهموا في جمع الأمثال العربية وتدوينها، ثم ناقشت مسألة سبق المثل عن القصة التي قيلت حوله، كما وصفت طبيعة المادة القصصية للمثل من حيث الإيجاز، والحبكة، وعملية السرد، وترابط الوقائع... الخ.

أما فيما يخص النادرة، فإن الباحثة وقفت مطولا عند تحديد المفهوم في المعاجم اللغوية ولدى بعض اللغويين والنقاد، لتقدم بعد ذلك تعريفا خاصا لها، في كونها "تطلق على الأخبار اللغوية التي تشكل غرضا علميا، وعلى حكايات ظريفة غريبة قائمة بذاتها وعلى حكايات مضحكة"¹⁸.

وتذكر في المقامات الأولى، تاريخ فن المقامة من ابن فارس إلى بديع الزمان الهمداني، إذ غلبت على هذا الفن الطابع الوعظي والإرشادي، ويشكل بحسب رأيها، ضربا من قصص الأحداث وهو أبسط الأنواع.

وترصد في القصص المنقول عن الأمم الأخرى، نماذج قصصية من القصص العالمي، وقصص كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة.

وتخص الباب الثاني من الكتاب، بالأنواع القصصية بعد انتشار أدب المقامة بين الشكل والمضمون. إذ تحدد فيه عزة، خمسة أنواع أساسية، وهي القصص الديني والفلسفي، وقصص التاريخ، والرحالة، وقصص المقامات، وقصص الحيوان، والقصص الشعبي. وتميز بينها، من خلال الشكل والموضوع، لتثبت طابعها العربي الأصيل " (فلمعرفة الخصائص الدقيقة لكل نوع فإننا نلاحظ سمات شكلية وموضوعية متفقة تكاد تجمعها وتقرر لها "الطابع" العربي جاهليا ثم إسلاميا) ¹⁹.

ولعل تقسيم الباحثة لهذه الأنواع، يراعي تصنيف مجموعة من النصوص والمختارات، وفق ظهورها وكرونولوجيتها التاريخية، فالقصص الديني، قصص يتطرق لبدء الخلق، وقصص الأنبياء والرسل، والقبائل البائدة. ثم تمثل لقصص الفلسفي بقصة حي بن يقظان، والفرج بعد الشدة للتونخي. وتحفل مجموعة من المصنفات التاريخية بالقصص التاريخية، بالقصص التاريخي، كتاريخ الرسل والملوك للطبري، ومروج الذهب للمسعودي، والبدء والتاريخ لأبي زيد البلخي وغيرها. أما قصص الرحالة، فقد مثلت رسالة ابن فضلان، وعجائب الهند لبرزخ بن شهريار، ورحلات ابن حبير نماذجا لها. وأفردت قصص المقامات، للحديث عن مقامات الحريري والسرقسطي والزمخشري، وأحمد بن المعظم، وشكل قصص ابن الهبارية، وقصص إخوان الصفا، وابن ظفر الصقلي ورضوان السيد نماذجا لقصص الحيوان. أما السيرة الشعبية بنماذجها الثلاثة (عنتر، وسيف بن ذي يزن، والأميرة ذات الهمة)، تمثل ضربا من القصص الشعبي.

يشكل البعد التاريخي لدى عزة الغنام الركيزة الأساس في التصنيف، وهدفها المنشود من الدراسة. "هذا بحث في تاريخ القصة العربية القديمة خلال مرحلة معينة" ²⁰. الشيء الذي دفع بها إلى تتبع صيرورة وتطور الفن القصصي دون

التدقيق أكثر في مسألة تصنيف النوع في ذاته وفي تسميته. فكيف نفسر إذن إدماجها للسيرة الشعبية ضمن القصص الشعبي؟ وهل القصص الشعبي جنس كلي وعام أم أمه نوع؟ وما موقع الحكاية الشعبية ضمن تصنيف الباحثة؟

تتبن مما سلف أن تصنيف الأنواع السردية في الثقافة الشعبية، ينطلق من العام إلى الخاص، من تقسيم ثماني للأدب الشعبي، إلى تقسيم خماسي للقصص العربي، تصنيف يضطرب فيه الباحثون، في تحديد المفهوم الجامع، الذي يتخذ، بعد الجنس، مما ينتج عنه اضطراب في إظهار خصائص كل نوع وتسميته.

ولعل التباين الحاصل في تصنيف الأنواع السردية يرجع إلى اختلاف الأسس والمعايير المعتمدة في ذلك، فبعضها يعتمد على البعد الوصفي والتحليلي في وصف الظواهر البنيوية للنوع الحكائي سواء من حيث مضمونه أو شكله أو وظيفته، وبعضها الآخر يعتمد على البعد التاريخي لظهور النوع وتطوره لكن هذا لا يمنع من التأكيد على أن الدارسين والباحثين في الأنواع السردية الشعبية، كان لهم تصورهم النظري والمفهومي للنوع وتشكله. إذ ينطلقون من تقديم تعريف لغوي واصطلاحي له، ثم ينتقلون إلى تحديد خصائصه وبنياته، اعتماداً على نصوص معينة يتخذونها نماذج لكل نوع. ليبقى مشكل التجنيس، وضبط الأنواع، وتصنيفها، ثم حصرها، معضلة تحتاج إلى المزيد من البحث والاستقصاء، مادامنا لم نحدد بعد المصطلح "الجامع" ذي البعد "الجنسي" أو "النوعي" لكل تجلي نصي عربي.

(3) الدراسة السردية

تأتي محاولة الناقد سعيد يقطين في كتابه "الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي"²¹ لتعميق التصور النظري في السرد العربي القديم، وتطوير أدوات الاشتغال عليه. وقد ركز فيه على دراسة الكلام العربي ورصد تجلياته، وهو عمل مشروط لديه ببعدين: بعد استقرائي لدراسات والأدبيات القديمة منها أو

الحديث التي اهتمت سواء بالأجناس الأدبية أو بالكلام العربي. وبعد استنباطي، ينطلق من متابعة النصوص وترصد تجلياتها لمعرفة ما يمكن أن تضيفه للبحثين العلمي والنقدي في مجال نظرية الأدب العربي. "إن النجاح في دراسة الكلام العربي مشروط بتكوين فكرة عن طرائف تحليله في الدراسات القديمة، ومواكبة الأدبيات الجديدة التي تنطلق من نظرية الأجناس كما تبلور في الأبحاث الغربية، ومتابعة التجليات النصية المختلفة التي ينتجها العربي"²². لهذا الغرض يرى الناقد ضرورة معالجة هذا الموضوع من خلال ثلاثة محاور أساسية:

مبادئ - مقولات - تجليات

الجنس - النوع - النمط

القصة - الخطاب - النص

ويقصد بالمبادئ، الكليات العامة المتعالية عن الزمان والمكان، وهي دائمة الوجود وتدرج بطرائق مختلفة، وتشكل هذه المبادئ في ثلاثة أقسام أساسية:

أ- الثبات إذ يحدد العناصر الجوهرية التي بواسطتها تميز ماهية الشيء عن غيرها.

ب- التحول وهو مبدأ كلي ثاني يتصل بالصفات البنيوية للشيء، وهي صفات قابلة للتحويل.

ت- التغير ويعني به كل الظواهر القابلة للتغيير من حالة للتغيير من حالة إلى أخرى. بفعل تدخل عوامل معينة ترتبط بالزمن أو بالضرورة التاريخية التي تحول الظاهرة من وضع لآخر²³.

ويهدف الناقد سعيد يقطين من وراء تقسيمه الثلاثي لمبادئ الكلام العربي (ثابت، متحول، متغير) إلى وصف الكلام في جوهره، وفي بنيوية صفاته، وفي تغيره العرضي أثناء تفاعله مع غيره أو في صيرورته الزمنية.

ويستدعي تمفصل الكلام إلى مبادئ ثلاثة أساسية إلى "المقولات" لتمييز وتدقيق فيما بينها، ويقصد بها مختلف التصورات أو المفاهيم التي تستعملها لرصد

الظواهر ووصفها²⁴ مما دفعه بأن يجعلها كليات من درجة ثانية ومتحولة. وانطلاقاً من علاقة المقولات بالمبادئ، يصنفها إلى ثلاثة أساسية:

1- المقولات الثابتة: تضطلع بالكلام من جهة الثبات وينظر إليه في ذاته. ويرتبط بالجنس.

2- المقولات المتحولة: تأتي في الدرجة الثانية بعد الجنس، وترتبط به ارتباطاً الخاص بالعام، إذ يتضمن الجنس النوع ويتفرع عنه.

3- المقولات المتغيرة: ترتبط بالأنماط، ويقصد بها مختلف الصيغرات التي تتعرض لها الأنواع في تطورها التاريخي، وكل ما يطرأ عليها من سمات يجعل بعضها يتميز عن بعض.²⁵

إن ربط المبادئ العامة بالمقولات، تجعلنا ندرج من ما هو عام إلى ما هو خاص، مولد تقسيمات جديدة: الأجناس، الأنواع، الأنماط. وقد أعاد يقطين صياغة هذه العلاقة من خلال هذا الجدول:

المبادئ \ الثابتة	الثبات	التحول	التغير
الثابتة	الأجناس		
المتحولة		الأنواع	
المتغيرة			الأنماط

وما دام الناقد يقتنع قناعة تامة بكون تحديد الجنس وتصنيفه لا يمكن أن يتحقق دون الانفتاح على النص، إذ "لا يمكن لنظرية الأجناس أن تستوي علماً مكتملاً ومنتهياً بانغلاقها دون النص. ودون ما يمكن أن يقدمه لها من احتمالات للتطور والإغناء"²⁶ فإنه لم يتخل عن النص في مستواه النصي ويمثله بالتجليات "التي تسهم في ربط الجنسية بالنصية، وتظهر من خلال ما يسميه " بالفاعل العام " والتجليات لا تخرج في تحديدها عن نطاق علاقتها بالمبادئ الأولية الثلاثة: الثبات، التحول، التغير، فأثناء الحديث عن التجليات الثابتة نكون أمام معمارية النص بالمعنى الذي يحدده بها جنيت. والمتحولة تتمثل في



التناس بمختلف أشكاله وصوره. أما المتغيرة فتمثل في أنماط المناصّات. ويعيد الباحث صياغتها على هذا النحو²⁷:

المبادئ	النبات	التحول	التغير
المقولات التجليات	الثابتة	المتحوّلة	المتغيرة
الثابتة	الأجناس معمارية النص		
المتحوّلة		الأنواع: التناس	
المتغيرة			الأنماط: المناصّات

لقد اتخذ يقطين من الكلام العربي حقلاً تجريبياً لتمثيل تصوراتّه النظرية، محاولاً دائماً ربط الجندسية بالنصية، فانطلق من مفهوم الصيغة بالمعنى الذي يحددها

به جنيت، وبالمعنى الذي يمكنه من تحديد طرائق التمثيل الكلامي عند العرب. ليصنف بذلك الأجناس إلى حديث وشعر وخبر، ويستبدل الخبر بمفهوم السرد لأنه أكثر إجرائية، وقسمه إلى أنواع ثابتة: الخبر، والحكاية، والقصة والسيرة. وإلى أنواع متفرعة عنها، فالخبر تتفرع عنه: النكت، اللطائف، البدائع، أخبار البخلاء وأخبار الظرفاء... وتتفرع عن الحكاية، حكايات الصالحين... أما الأنواع المختلطة فيمثلها بالأمثال، وقصص الحيوان، والرحلة، وفي ما يخص الأنماط فقد حددها انطلاقاً من ثلاثة صيغ: الصيغ المرجعية التي يتولد عنها: الواقعي والتخييلي والتخييلي. والصيغ المقصدية يقسمها إلى معرفي، وانفعالي، وتدبري، وتلذذي. ثم الصيغ الأسلوبية وتضم الأسلوب السامي، والمنحط، والمختلط²⁸.

يتضح من خلال هذه الخطاطة وعي الباحث التصوري حول ما يكتنف نظرية الأجناس الأدبية من صعوبات جمة. الأمر الذي دفع به إلى التعامل بنوع من المرونة أثناء تصنيفها، وابتعاده عن الطرح القائل بنقاوة الجنس وصفائه، إذ سمح بتداخل الأجناس والأنواع والأنماط في بعض المبادئ والمقولات. فالجنس

مقولة كلية ومتعالية، يتفرع عنه النوع الذي يبقى له أيضا بعدا جنسيا لاشتراكه مع الجنس في بعض الخصائص، أما النمط فيأخذ طابعا توسطيا باعتباره صفة عامة تجري على كل جنس جنس، وعلى كل نوع نوع. ويرى الباحث أن تحديده للجنس لا يتم دون انفتاحه على التجلي النصي الذي يسعفه على وضع إمكانات وتصورات جديدة، كما يدفعه إلى الانتقال من التصورات التجريدية والعامة إلى ما هو ملموس وخاص. ولعل تحديده للمفاهيم والمصطلحات التصورية وحصرها في ثلاثة مقولات: الجنس، النوع، النمط. يخفف من وطأة الزخم المفهومي الذي كانت تعرفه الدراسات البلاغية والنقدية، دون تحديد لها أو ضبط (صنف، ضرب، قسم، باب، نوع، لون، فن...).

المصادر والمراجع

1. إبراهيم (نبيلة)، القصص الشعبي : جمعه وتصنيفه. ضمن ندوة التخطيط لجمع وتصنيف ودراسة الأدب الشعبي. (4-8 نوفمبر 1984). مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية. ط:1. 1985.
2. إبراهيم (نبيلة)، أشكال التعبير في الأدب الشعبي. مكتبة غريب. ط:3. (بدون تاريخ)
3. الأبشيهي(شهاب الدين)، المستطرف من كل فن مستظرف، الجويدي (درويش)، المكتبة العصرية، ط:1، 1996
4. ابن منظور(جمال الدين): لسان العرب، تحقيق: مهنا(علي). دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1993، (ص:209)
5. التهانوي (علي بن محمد)، كشف اصطلاحات الفنون. وضع حواشيه: سميح(أحمد حسن). دار الكتب العلمية، المجلد:1، ط:1، 1998
6. الجاحظ (أبو عثمان)، البيان والتبيين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1968.
- a. الجرجاني (علي بن محمد)، كتاب التعريفات. دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1983.
7. الزمخشري (محمود)، أساس البلاغة، دار النفائس، بيروت، ط:1، 1992



8. سليمان (موسى)، الأدب القصصي عند العرب. دار الكتاب اللبناني. ط: 5. 1983
9. العسكري (أبوهلال)، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر. تحقيق: قميحة (مفيد). دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1981.
10. الغنام (عزة)، الفن القصصي العربي القديم، من القرن الرابع إلى القرن السابع. الدار الفنية للنشر و التوزيع. 1990
11. الكاتب (ابن وهب)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفي (محمد شرف). مكتبة الشباب، مطبعة الرسالة، (بدون تاريخ).
12. الكلاعي (أبو القاسم)، إحكام صنعة الكلام. تحقيق: الداية (محمد رضوان)، دار الثقافة، بيروت، 1966
13. النوري (شهاب الدين)، نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، (بدون تاريخ).
14. يقطين (سعيد)، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط: 1، 1997.
15. يونس (عبد الحميد)، الحكاية الشعبية. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (بدون تاريخ)

الهوامش:

- ¹ يونس (عبد الحميد): الحكاية الشعبية. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر. (بدون تاريخ). (ص: 10)
- ² إبراهيم (نبيلة): أشكال التعبير في الأدب الشعبي. مكتبة غريب. ط: 3. (بدون تاريخ)
- ³ يونس (عبد الحميد): الحكاية الشعبية. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر. (بدون تاريخ)
- ⁴ نفسه، (ص: 4).
- ⁵ نفسه، (ص: 4).
- ⁶ إبراهيم (نبيلة): القصص الشعبي: جمعه وتصنيفه. ضمن ندوة التخطيط لجمع وتصنيف ودراسة الأدب الشعبي. (4-8 نوفمبر 1984). مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية. ط: 1. 1985
- ⁷ نفسه، (ص: 217).
- ⁸ نفسه، (ص: 203).
- ⁹ يونس (عبد الحميد): الحكاية الشعبية. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (بدون تاريخ). (ص: 4).
- ¹⁰ نفسه، (ص: 11).
- ¹¹ نفسه، (ص: 10).
- ¹² سليمان (موسى): الأدب القصصي عند العرب. دار الكتاب اللبناني. ط: 5. 1983
- ¹³ نفسه، (ص: 70).
- ¹⁴ نفسه، (ص: 159).
- ¹⁵ نفسه، (ص: 235).

- ¹⁶ نفسه، (ص:335).
- ¹⁷ نفسه، (ص:386).
- ¹⁸ الغنم (عزة): الفن القصصي العربي القديم، من القرن الرابع إلى القرن السابع. الدار الفنية للنشر و التوزيع. 1990 (ص:44).
- ¹⁹ نفسه، (ص:87).
- ²⁰ نفسه، (ص:9).
- ²¹ -يقطين(سعيد)، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط:1، 1997.
- ²² نفسه، (ص:178).
- ²³ نفسه، (ص:181/182).
- ²⁴ نفسه، (ص:182).
- ²⁵ نفسه، (ص:187).
- ²⁶ الكلام والخبر، (ص:182).
- ²⁷ نفسه، (ص:187).
- ²⁸ -الكلام والخبر، (من ص:195 إلى ص:203).